



تاريخ

"تنبكتو" مدينة صنهاجية في قلب الصحراء الكبرى:

لمحة تاريخية موجزة خلال العصر الوسيط

* د. عماد أدرداك

طالب باحث في التاريخ والحضارة

ملخص

تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على مدينة عريقة ذات أصول صنهاجية، لعبت دورا هاما في السودان الغربي، وشكلت همزة وصل بين الغرب الإسلامي وإفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الوسيط، يتعلق الأمر بمدينة تنبكتو، الواقعة حاليا في دولة مالي، حيث ذكرت موقعها وسبب تسميتها وتاريخ نشأتها، وأهم عوامل تأسيسها: العامل التجاري.

وقد خلص هذا البحث الموجز إلى أن مدينة تنبكتو تناوبت عليها تقلبات كثيرة تأرجحت بين الازدهار والانكسار، إذ عرفت أزهى أيامها في عهد مملكة مالي في عهد السلطان منسا موسى الذي شيد المساجد، وفي عهد مملكة السنغاي إبان فترة حكم الاسكيا محمد الذي اعتنى بالعلماء وأكرمهم، قبل



أن تشهد نكبات كثيرة، أهمها نكبة سلطان مالي سني على الذي حارب علماء تنبكتو وشردهم، ثم نكبة السعديين الذين قضوا على إشعاع تنبكتو، وهو ما فتح المجال أمام انتشار الوثنية، ثم حملات التنصير مع الاستعمار الحديث.

كلمات مفتاحية: تنبكتو، صنهاجة، المرابطين، مملكة مالي، مملكة سنغاي، أحمد المنصور الذهبي.

مقدمة

تعد مدينة تنبكتو، التي لقبها المستكشفون بجوهرة الصحراء، من أهم مدن الساحل الإفريقي. وقد مثلت هذه المدينة منذ نشأتها بؤرة صراع ومركز ثقافة، أثرت وتأثرت، فغدت من أهم مراكز الإشعاع الثقافي والحضاري والتجاري خلال العصر الوسيط، ومع ذلك بقيت هذه المدينة مغمورة، ولم تحظ بالكثير من الدراسات، وكل ما يتوفر بشأنها هي مجرد معلومات متناثرة هنا وهناك في بطون الكتب، ككتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان، وكتاب تاريخ السودان لعبد الرحمن السعدي، وكتاب تاريخ الفتاش لمحمود كعت، وكتاب نيل الابتهاج بتطيرز الديباج لأحمد بابا التنبوكتي، إضافة إلى بعض الكتب العامة في التاريخ، وبعض الدراسات التاريخية المتفرقة ككتاب العبر لابن خلدون، وكتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأحمد بن خالد الناصري، وأيضاً بعض الدراسات التي تحدثت عما يعرف بالسودان الغربي.

إشكالية البحث:

ما هي ظروف تأسيس مدينة تنبكتو؟ وما هي مظاهر الازدهار في تاريخها؟ وما هي

أسباب انكسارها؟



1. مرحلة التأسيس

أ. التسمية

اختلفت الآراء حول تسميتها، وأشهر هذه الآراء أن كلمة تنبكتو كلمة أمازيغية باللهجة الصنهاجية، مكونة من كلمتين (تين) و (بكتو) ومعناها "خاص بالعجوز"، لأنها كانت أرضا ملكا لعجوز من الطوارق (السعدي، 1981: 21)، ويكون معنى تنبكتو المكان الذي تملكه العجوز، وقد تعني المدينة القديمة.

ب. الموقع

تقع مدينة تنبكتو في الشمال الغربي لدولة مالي حاليا، بمحاذاة الجنوب الجزائري وشرق موريتانيا في منطقة مترامية الأطراف فيما يعرف بالساحل الإفريقي، وكانت تعرف هذه المدينة قديما بصحراء صنهاجة (الحسن الوزان، 1983، ج 2: 148)، لأن قبائل صنهاجة أكثر من عمرها. والبلاد الواقعة في أرض السودان شديدة الحرارة، إلا أنها بها شيء من الرطوبة بسبب نهر النيجر، وكل الأقاليم المجاورة لهذا النهر صالحة للزراعة، وتتمو فيها الحبوب بكثرة، وتوجد من الماشية أعداد لا تحصى، ويوجد بها أيضا أنواع الخضر إلا أن الفاكهة فيها قليلة أو منعدمة (نفسه، ج 1: 77).

ج. تأسيس مدينة تنبكتو

تختلف المصادر حول تحديد تاريخ تأسيس مدينة تنبكتو، فالسعدي يرجعها إلى القرن 5 هجري/ 11 ميلادي على يد الطوارق (السعدي، 1981: 77)، في حين يذكر الحسن الوزان أن تأسيسها كان في القرن 7 هجري/ 13 ميلادي سنة 610 هجري على يد منسي سليمان ملك مالي (الحسن الوزان، 1983، ج 2: 168). والأرجح أن بداية الاستقرار بها كان في أواخر القرن 5 هجري، وبالضبط عند نزول المرابطين الأوائل بها، حيث نزل أحوازا المصلح عبد الله بن ياسين على مقربة من تنبكتو (عنان، 1997، ج 2: 302)، فوفد عليه كثير من أشرف هذه المنطقة



فبلغو ألفاً، وبدأ بتغيير المنكر ومحاربة البدع والعادات الوثنية في تلك النواحي، فحارب اجدالة ولمتونة ثم مسوفة حتى خضعت قبائل صنهاجة كلها (نفسه: 303)، ويظهر أن انطلاق دعوة المرابطين من هذه المنطقة وظهور دولتهم على سواعد لمتونة وغيرها من قبائل صنهاجة، كان له الأثر الأكبر في تكون تجمع سكاني مستقر بالمنطقة عمدته قبائل مسوفة، بعد أن انتقل إخوانهم اللمتونيون مع عبد الله بن ياسين إلى المغرب الأقصى ثم إلى الأندلس، ويؤكد هذا الطرح أن مؤسسي مدينة تنبكتو هم الطوارق، وبالتحديد مسوفة الصنهاجية (ابن بطوطة، 1417 هـ، ج 4: 269)، وعليه يرجح تزامن تأسيس مراکش مع تأسيس مدينة تنبكتو إبان عصر الدولة المرابطية. وهذا التجمع الساذج، حسب تعبير ابن خلدون، تأسس على مبادئ الدين الإسلامي ذو المرجعية السنية والمذهب المالكي تأثراً بالدعوة المرابطية، ويذكر عبد الرحمن السعدي أن بناءها كان بسيطاً في البداية، فكانوا يبنون بالأشواك والجرائد، ثم تحولوا إلى بناء أسوار قصار بحيث من وقف خارجها يرى ما في داخلها، ثم بنوا المسجد الجامع، ثم مسجد سانكرى، الذي ثبتت عمارته في القرن التاسع الهجري، وهي بداية العصر الذهبي لمدينة تنبكتو، وما تكامل بناؤه إلا في أواسط القرن العاشر الهجري في عهد حاكمها أسكيا داورد (السعدي، نفسه: 21-22).

2. مرحلة الازدهار

أ. في عهد المرابطين

يعتبر العامل التجاري أهم عامل في نشوء مدينة تنبكتو في القرن الخامس الهجري، فهذه المنطقة كانت ملتقى القوافل المتجهة من مناجم الذهب في غانة وغيرها، مروراً بغاوا إلى الشمال الغربي باتجاه سبلماسة ودرعة ومراكش وفاس وتلمسان، وباتجاه الشرق نحو توات وميزاب وطربلس والقاهرة ثم بلاد الحجاز والشام. وكان ظهور دولة المرابطين سبباً في ازدهار التجارة في الجنوب، فهم يعرفون المنطقة جيداً، إذ منها خرجوا ومنها تكونت دولتهم، فعملوا على تأمين السبل، فتنوعت السلع وكثرت حركة القوافل، خصوصاً تجارة التبر والذهب القادم من غانا وضاف نهر النيجر والسنغال (الحميري، 1980: 426).



ويضاف إلى ذلك تجارة الرقيق والعبيد، وهي تمثل إحدى أهم المعاملات التجارية في بلاد السودان، كما يقول الشريف الإدريسي "يباع منهم-أي الرقيق-في كل سنة أمم وأعداد لا تحصى" (الشريف الإدريسي، 1409 هـ: 110)، وشملت السلع الآتية من الجنوب إضافة إلى ما ذكر الشب وجلود الحيوانات المفترسة، وغيرها، فعم الثراء هذه المنطقة وساعد المسوفيين وغيرهم من قبائل صنهاجة على الاستقرار وترك حياة الترحال.

أما المواد المستوردة من تنبكتو والجنوب عموماً، فتمثلت في الملح خصوصاً، حيث كان يعتبر المادة الأولى للمقايضة والتبادلات التجارية عندهم، ويدخر منه الكثير باعتباره مادة استراتيجية للسودانيين (نفسه، ج 3: 269)، ويصدر إليهم كذلك النحاس والزجاج وخشب الصنوبر وبعض المواد الغذائية كالقمح الذي يحتاجه أهل تنبكتو وغيرها (الناصري، ج 2: 3).

لقد شكلت منطقة تنبكتو خزان المرابطين من الذهب والعبيد، وقاعدة خلفية غنية زودتهم بالمال والرجال لتوحيد المغرب الأقصى تحت سلطتهم، وإنقاذ الأندلس من براثن النصارى ولو إلى حين.

ب. في عهد مملكة مالي

يعد عصر ملك مالي منسا موسى في القرن 8 هجري / 14 ميلادي (1312م-1337م)، بداية عصر الازدهار الفكري في ما يعرف بالسودان الغربي، وفي عهده أصبح الإسلام راسخ الأركان، وساعده على ذلك شهرة هذا السلطان في كل العالم الإسلامي حينئذ، وخصوصاً بعد قيامة سنة 1324 ميلادية برحلته الشهيرة إلى مكة لأداء فريضة الحج، وقد رافقه في هذه الرحلة الآلاف من رعاياه، وقام بصرف أموال طائلة أدت به إلى الإفلاس عند نزوله بمصر، فلجأ إلى الاقتراض من أحد تجار الإسكندرية يدعى سراج الدين الإسكندري، والذي لحق به فيما بعد لاسترداد أمواله (السعدي، نفسه: 20)، ويذكر السعدي أن سلطان مالي منسا موسى هو أول



سلطان ملك تنبكتو وأسس بها دار السلطة فسميت "مع دك" ومعناها دار السلطان. وقد ازدهرت تنبكتو وارتفع شأنها وأصبحت مركز إسلاميا ثقافيا أمها الفقهاء والعلماء، واشتهرت بجوامعها ومساجدها ومدارسها.

وأخذت المدينة في العمران وتدفق عليها السكان من فزان وسوس وفاس، بل وبعض المصريين، وكان بها سوق كبير، وأحيطت المدينة بسور عظيم له أبواب يقوم على حراستها، تغلق الأبواب بعد صلاة المغرب، فلا يسمح لأحد بدخولها بعد ذلك الوقت، وقد انتعشت الحركة العمرانية بالمدينة خاصة في عهد منسا موسى، الذي جلب معه من الحج المهندس الغرناطي اسحاق بن الطوجين، فنشر الفن المعماري والهندسة العربية والمغربية في بناء المساجد والجوامع والمنازل (كعت، 1931:115). وقد تعددت الأجناس التي سكنت في تنبكتو، فهناك قبائل من العرب، والبربر والسنغاي والطوارق والمغاربة والمصريين، وهم جميعا يلبسون ملابس متشابهة، ويرتدي أغلبهم الملابس البيضاء والعمامة البيضاء، أما العمامة الزرقاء من القماش الداكن فكانت تميز المغاربة الموجودين في تنبكتو (السعدي، نفسه: 21). ولعبت التجارة دورا رئيسيا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لمدينة تنبكتو بسبب موقعها الجغرافي الهام والاستراتيجي، فذاع صيتها وشهرتها بحيث أصبحت مقصد التجار الأفارقة من جميع الأقطار، وأصبحت سوقا تجارية كبيرة عامرة بالبضائع الإفريقية والمنتجات الأوروبية، وتعددت الطرق التجارية المؤدية إليها.

3. مرحلة الانكسار: نكبات تنبكتو

كانت مدينة تنبكتو تمثل مركزا تجاريا وثقافيا هاما في منطقة السودان الغربي بداية من القرن 14م، وبلغت أوج ازدهارها في القرنين 15م و16م، لهذا كانت مستهدفة من الغزاة، فتعرضت لعدة هجمات، أشهرها حملة سني علي وحملة أحمد المنصور السعدي.



أ. النكبة الأولى: حملة سني علي

هي حملة سني علي على تنبكتو لضمها لمملكته ومحاربة المناوئين له، يسميه عبد الرحمن السعدي بالظالم الأكبر والفاجر الأشهر والخارجي، دخل مدينة تنبكتو في الرابع من شهر رجب سنة 873 هجرية، وأحدث فيها فسادا كبيرا، فحرق دورها وخربها وقتل منها خلقا كثيرا، ولما علم أميرها بقدومه أحضر ألف جمل ورحل فقهاء جامع سنكري، ومشى بهم إلى ولاته وقال إن شأنهم أهم عنده، واشتغل سني علي بقتل ما تبقى من الفقهاء بتنبكتو، ومن لم يسعفه الفرار، عمد إلى إهانتهم، وزعم أنهم أحباب الطوارق (السعدي، نفسه: 65-66). وبقي شره مستطيرا بين قرى السودان، فلم يهدأ له بال حتى دوح إقليم التكرور، وأحدث فيه النهب والتخريب والفساد، إلى أن توفي سنة 898 هجرية، وخلفه ابنه أبو بكر ووقع الخلاف بينه وبين محمد بن أبي بكر الطوري أحد قيادات سني علي، وبعد معارك كثيرة بينهما تغلب الطوري، وتملك ما تركه سني علي، وتلقب بالأسكيا محمد، وفرج الله به على المسلمين الكروب، وأزال به عنهم البلاء والخطوب، واجتهد بإقامة ملة الإسلام وإصلاح أمور الأنام، وصاحب العلماء واستفتاهم فيما يلزم من أمور الحل والعقد (السعدي، نفسه: 70). وفي صفر سنة 902 هجرية حج الأسكيا محمد مع جماعة من أعيان القبائل، فتصدق بمال كثير في الحرمين، واشترى حديقة بالمدينة المنورة وحبسها على أهل التكرور، وفي عهده أمنت السبل واسترجعت تنبكتو دورها العلمي والحضاري.

ب. النكبة الثانية: حملة المنصور السعدي

السبب المباشر لهذه الحملة هو أن السلطان السعدي أرسل إلى الاسكيا اسحاق ليسلمه خراج الذهب بمنطقة تغاز، فلم يوافق الاسكيا على ذلك، وبعد أخذ ورد، أرسل أحمد المنصور جيشا كبيرا مسلحا بأسلحة نارية، ومعه الأطباء والصناع والكثير من المرتزقة الأندلسيين والبرتغاليين والأتراك، تحت قيادة الباشا جودر في سنة 999 هجرية/1591 ميلادية (نفسه: 142).



وأثناء هذا الغزو اضطربت الأوضاع وشاعت الفوضى، وصار الناس يأكل بعضهم بعضاً، فعم الفساد وانتشر (نفسه: 143)، فانهارت على إثر ذلك إمبراطورية سنغاي. ولم يكن أهل تنبكتو ينظرون إلى الغزاة بعين الرضى والقبول، فثاروا عليهم عدة مرات وكان بسبب ذلك خراب تنبكتو، ففي سنة 1000 هجرية جرى قتال بين أهل تنبكتو والقائد مصطفى التركي عامل السعديين، فأدى إلى هلاك الناس واحتراق الدور وتكرر ذلك في عدة مناسبات، ولم يستتب الأمر للسعديين في التكرور لكثرة الثورات عليهم، غير أن تلك المقاومة ظلت عاجزة عن النيل من قوة الجيش السعودي المدعم بالسلاح الناري، وهو تفوق تقني كان له فعل السحر في نفوس أهل تنبكتو والسودان عموماً. في المقابل، أشد ما كان يؤرق باشاوات الجيش السعودي قوة معارضة فقهاء أهل البلد بسبب تحريضهم لأبناء جلدتهم على المقاومة، فقرر الباشا محمد بن زرقون إبعادهم ونفيهم إلى مراكش مع أهلهم سنة 1594 ميلادية، بعد مكيدة تجميعهم في أشهر مساجد تنبكتو (سكرا) (نفسه: 169).

خاتمة

ساهمت عدة عوامل في تأسيس مدينة تنبكتو، أبرزها العامل التجاري حيث كانت معبراً للقوافل التجارية. وقد شكلت قبيلة مسوفة الصنهاجية النواة الأولى لهذا التجمع السكاني، فيما كان لأبناء عموماتهم من لمتونة و اجدالة عصب تكوين دولة المرابطين في مراكش، ولهذا يرجح أن بناء مدينة تنبكتو كان بالموازاة مع بناء مراكش. وشكل التنوع الإثني لتنبكتو حركية هامة لتكوين مناخ فكري وثقافي هام، ظهر مع القرن الرابع عشر الميلادي، حيث مثلت تنبكتو مركزاً علمياً وتجارياً راقياً، مما جعلها نقطة انطلاق ومركز إشعاع لنشر الإسلام في أعماق إفريقيا خصوصاً وأن مسجدها سنكري كان يمثل جامعة حقيقية للدراسات العليا، تخرج منها كبار الفقهاء والعلماء.



بسبب تراثها وغناها، تعرضت تنبكتو لعدة حملات، أشهرها حملة سني علي وحملة أحمد المنصور السعدي، حيث تعتبر حملة هذا الأخير على تنبكتو محطة بارزة في تاريخها لأنها قضت على الحركة العلمية بها، وفتحت المجال أمام الفوضى وعودة الوثنية إلى عموم السودان.

لائحة المصادر والمراجع

• المصادر

- ابن بطوطة. (1417 هـ). تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط.
- الحميري، محمد بن عبد الله. (1980 م). الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت طبعة 2.
- الإدريسي، الشريف. (1409 هـ). نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، طبعة 1.
- السعدي، عبد الرحمن. (1981 م). تاريخ السودان، تحقيق اوكتاف هوداس، مكتبة أمريكا والشرق، باريس.
- كعت، محمود. (1931 م). تاريخ الفتناء في أخبار البلدان والجيش واکابر الناس، تحقيق وترجمة هوداسو دولابوس، أنجي.
- الناصري، أحمد بن خالد. (1997). الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء.
- الوزان، الحسن. (1983). وصف إفريقيا، ترجمه محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، طبعة 2.

• المراجع

- عنان، محمد عبد الله. (1997). دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، طبعة 4.